Issn:2572-0023

سياسة التنصير ودورها في المخطط الاستعماري الفرنسي

د/محمد مرغيت

جامعة أدرار

مقدمـــة :

لعله من الضروري قبل أن نلج في الحديث عن الحركة التنصيرية واهتمام السلطة الاستعمارية الفرنسية بالصحراء الجزائرية من أن نضع الأمور في سياقها التاريخي، وأن نفهم هاته الحركة في إطارها الشمولي، من خلال سعي الكنيسة النصرانية الى نشر الدين النصراني وإحلاله محل الديانات الأخرى بأساليب شتى، تباينت واختلفت، وكلها رصدت لنفسها هدفا واحدا مشتركا عملت على تحقيقه وسخرت في سبيله قوة مادية وبشرية من أن تكون للنصرانية دين الإنسانية جمعاء – حسب زعمهم –.

ويبدوا أن حركة التنصير العالمية التي انطلقت من مختلف الدول الأوروبية، كانت ترغب في اغتنام وإيجاد كل فرصة تراها مناسبة للقيام بأعمال تبشيرية، والحقيقة أن هذه المحاولات كانت شاقة ومضنية كلفت الكنيسة الدخول في مغامرة غير محسوبة العواقب، لكن بفضل المناخ الذي وجدته الكنيسة أثناء الهجمة الصليبية الأوروبية على البلاد الإسلامية، والمتمثلة في الحركة الاستعمارية الحديثة التي قادتها أوروبا التقليدية مسخرة جميع الوسائل، موظفة مختلف الطرق لإخضاع البلدان الإسلامية وغير الإسلامية، أمر ساعد الكنيسة من أن تخوض غمار الحرب غير المعلنة ضد الأديان الأخرى وعلى رأسها الإسلام، مستعينة بالقوة العسكرية أو السلطة الزمنية من أجل بلوغ غايتها.

إن الدول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا وألمانيا ومن خلال المشروع الاستعماري الذي بدأ تنفيذه في العصر الحديث عملت على القيام بدراسات ميدانية دقيقة، مستعينة ببعض الطاقات البشرية التي اتخذت لبوس الدين أو الاستكشاف أو الرحلة..... لإمدادها بالمعلومات الدقيقة حول بعض المناطق المجهولة سعيا منها لإخضاعها والاستيلاء عليها، وكان على رأس هذه المناطق المجهولة الصحراء الإفريقية والجزائرية بالخصوص التي تعتبر المنفذ الرئيس إليها، فكان عليها أن تبدأ بحملات عسكرية لها أهداف واضحة ومحددة، وهذا ما نلمسه في السلطة الاستعمارية الفرنسية التي أخضعت الجزائر واستعمرت أغلب مناطقها قسرا.

1- اتجاهات السياسة الاستعمارية الفرنسية:

لقد استخدمت السلطة الاستعمارية الفرنسية عدة اتجاهات في سياستها الإستعمارية وبالأخص في الجزائر. والمقصود بالسياسة الاستعمارية هو تحديد طبيعة العلاقة القائمة بين دولة الأصل والأقطار المرتبطة بها، والحقيقة أننا إذا أردنا أن نفهم هذه العلاقة القائمة أرجعناها إلى ثلاث اتجاهات أساسية:

إحداها: سياسة الإخضاع؛ أي إخضاع المستعمرات إلى دولة الأصل ولمصلحة هذه الأخيرة وحدها، وهذا أثر من آثار العصور الأولى لما يسمى بالإمبراطوريات الاستعمارية القديمة الرومانية والفينيقية....ثم نضيف إلى هذا اتجاهان آخران حديثان وهما: سياسة الإدماج، ثم الاستقلال الذاتي، وهذان الأخيران وان كانا متعارضين إلا إنهما مستوحيان من فكر متحرر إنما أدركا الحرية بطريقين مختلفين[1]

إن الناظر في السياسة العامة التي انتهجتها السلطة الفرنسية في الجانب الثقافي يجد أنها سعت إلى تجهيل الأمة الجزائرية وإبعادها عن تراثها الفكري، وتحطيم المقومات الأساسية للشعب الجزائري في مجالات التعليم والثقافة والصحافة والأدب واللغة العربية والعادات والتقاليد العربية الإسلامية ومن ثم سهل عليها فرنسة الأهالي أو مسخهم عن هويتهم[2].

لقد أدرك هؤلاء الحاقدون على الإسلام وأهله والمتعصبون الجدد الدروس التاريخية التي لحقت بهم على مر التاريخ على يد المسلمين في مواقع كثيرة، فحاولوا أن يعتبروا بها، فجندوا قواهم التبشيرية جنبا إلى جنب مع عساكرهم الجدد، في محاولة لإلغاء إسلام الأمة[2]، وذلك أنهم رأوا من أمر الإسلام وانتشاره حول العالم، وأفزعتهم شدة تأثيره في النفوس، فأولوا جلساتهم ومؤتمراتهم للمؤامرة ضد تلك الشمس المشرقة وإطفائها بأفواههم[3]، حيث عقدوا الجلسات والمؤتمرات الدولية للمداولة والتفكير في الطرق التي توصلهم إلى نفوس المسلمين،[4] وكان من بين أبرز مؤتمراتهم التي عقدوها بشأن دراسة حال التبشير العالمي مؤتمر القدس سنة1924، ويمكن تفسير هذا بجدية الكنيسة النصرانية في تحقيق ما تصبوا إليه البابوية من التمكين لدينها والعمل الجاد في سبيل نشره مهما كانت الصعاب، وفي هذا السياق

1- محمد حسنين، **الاستعمار الفرنسي**، ط.1، م.و.ك، الجزائر: 1986، ص. 27.

2- ينظر: محمد الطمار، **الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج**، (دط)، ش.و.ن.ت: الجزائر، 1993، ص.262

2 - صالح عوض، **معركة الإسلام والصليبية في الجزائر**، ج.1، الزيتونة للإعلام والنشر، ص.208.

3 - محمد مرغيت، **الشهاب وموقفها من قضايا معاصرة (1925-1939)** رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر 2003، ص.197.

4 - الفرقد،" الضمير"،**وادي ميزاب**، العدد84، ذي الحجة1346، ماي1928.ص.2.

يقول العربي التبسي: " لقد استعذبوا كل كريهة وركبوا كل صعب لخدمة أمتهم في رابطتهم المذهبية وهم في جهودهم وأساليبهم ومقاصدهم يعملون، ويسيرون مع ضياء التجارب ليبني الآخر منهم على أساس السابق.[1]

والتنصير كما هو ظاهرا إنما هو مشروع صليبي محدد الأهداف لا يتوان في القيام بالهجمات الشرسة على الإسلام والمسلمين باسم الإنسانية ونشر المدنية، والبحث العلمي والمعاني السامية من تسامح وعدل وتسامح....، وهم بذلك يهدمون كل يوم صرحا من أصول الإسلام وقواعده المتينة بمختلف الطرق والوسائل[2].

إن الحديث عن التنصير كظاهرة وكصورة من صور الاستعمار الحديث الذي صحب السلطة العسكرية أثناء الاحتلال، إنما لإبراز الدور الذي لعبته الكنيسة وروادها في التمكين للاحتلال من إخضاع الأراضي المجهولة والبعيدة، ورغم الجهود التي سخرها المنصرون ومن ورائهم الاحتلال للتنصير في المناطق الساحلية والداخلية، إلا أن الصحراء الكبرى ظلت عقبة كؤود أمام الاحتلال للتوغل فيها، وكشف ذلك العالم الغامض الذي كثيرا ما كتب عن أهوالها، وذلك للأساطير والخرافات التي تروى عن متاهاتها وعن سرابها الخداع، ولهذا نجد أن هناك محاولات عدة من الفرنسيين وحتى الإنجليز والألمان لمحاولة اكتشافها والاطلاع على أسرارها، فقد كانت هناك محاولات استكشافية استطلاعية قبل الغزو الفرنسي للجزائر من قبل أفراد فضلوا المغامرة بحياتهم في سبيل كشف المجهول وإزالة الغموض عن هذا العالم، فماذا عن هذه الحملات الاستطلاعية؟

2- الحملات الاستطلاعية:

إن بداية اهتمام الأوروبيين بالصحراء الجزائرية لم تكن متأخرة أو متزامنة مع الحملة الاستعمارية الحديثة للبلاد العربية، وإنما بدأت في القرون السابقة، أين لاحظنا بعض المحاولات لبعض الشخصيات المولعة بالبحث عن أغوار البلدان وكشف المجهول منها، وعلى الرغم من المعلومات التي قدمها بعض الجغرافيين والرحالة من اليونان والرومان حول الصحراء الجزائرية فإنها تبقى المعلومات الوحيدة التي توفرت للباحثين والمهتمين بالصحراء الكبرى، حتى أواخر القرن الثامن عشر، ورغم ذلك فإن قيمة هذه المعلومات لم تقدم أي خدمة للبحث العلمي، من حيث معرفة الواقع الجغرافي للمنطقة أو البنية الاجتماعية أو الطبيعة الديموغرافية لهذه البلاد التي ظلت سرا غامضا لدى الكثيرين، مما يفسر لنا سر عدم قدرة هؤلاء الرحالة والمستكشفين من التوغل داخل هذه البقاع والفيافي الشاسعة، التي صارت شبحا مخيفا لدى الكثيرين، بل إن الدخول في هذا المشروع يعتبر مجازفة حقيقية ومخاطرة غير محسوبة العواقب.

1- العربي التبسيً، كلمة دينية إلى ذوي الأحلام والنهىً،الشهاب، ج.9،م.8،جمادىالأولى1351هـ،سبتمبر1932.ص.479

2 - محمد مرغيت، مرجع سابق،ص.201.202

إن صعوبة الطبيعة وقسوتها قد شكل العائق الرئيسي لدى هؤلاء المستكشفين، وصارت تشكل حاجزا منيعا ضد توغل الأجانب داخل الصحراء، ومما زاد الأمر مناعة ما عرف به المسلمون الذين يقيمون في أطرافها الشمالية من شوكة في الدفاع عن عقيدة التوحيد – التي هي العقيدة الإسلامية الحقة – ضد عقيدة التثليث والأفكار والعقائد المنحرفة الدخيلة، والحقيقة أن الصحراء كانت تمثل عبر التاريخ الخط الخلفي في الدفاع عن الإسلام والقيم الأدبية ضد طلائع الاستعمار، أما خطوط الدفاع الأمامية فقد كانت هي الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، التي ظلت الأساطيل المغربية مرابطة على السواحل مدافعة عن بيضة المسلمين وحماية أراضيها قرونا طويلة، والتاريخ قد سجل تلك البطولات الخالدة في صفحاته، والتي حالت دون توغل الدخيل الأجنبي إلى الصحراء الكبرى. [1]

ولكن بعد الحملة الاستعمارية التي قادتها أوروبا ومن ورائها الكنيسة النصرانية ضد البلاد الإفريقية، و بعد سقوط العديد من القلاع وعلى رأسها مدينة الجزائر التي كانت سدا منيعا وبابا موصدة في وجه العدو، والتي كانت خطا أماميا للدفاع عن الصحراء – قلت- لاح في الأفق وانفتح الطريق أمام الطامعين والمغامرين الأوروبيين، وحينها بدأت ما يسمى بالمحاولات الاستطلاعية والاستكشافية التي كانت أغراضها وأهدافها بل ودوافعها متعددة، فمنها ما كان العامل الاقتصادي وراءه لأجل الغزو التجاري والبحث عن أسواق جديدة لترويج البضائع وكسب مناطق نفوذ تجارية، ومنها ما كان العامل الديني وراءه، لأجل التبشير ونشر الدين النصراني في هاته المناطق المجهولة.

لقد وجدت هناك محاولات كثيرة من قبل بعض الرواد الذين فضلوا المغامرة في سبيل تحقيق الأهداف التي سطرتها حكوماتهم آنذاك، وكانت بريطانيا من الدول الأوروبية السباقة للقيام بمهمات استكشاف الصحراء الكبرى، وخاصة بعد تشكيل جمعية أطلق عليها اسم "الجمعية الإفريقية" سنة 1788 وهي على غرار الجمعية الأسيوية، والتي كانت تستهدف دراسة هذه المناطق والقيام بجمع المعلومات الكافية عن الصحراء وسكانها ومسالكها الجغرافية وطرقها التجارية وأنماط المعيشة والتركيبة الأنثروبولوجية لهذه المناطق بقصد التوغل واستكشاف الحقائق المجهولة التي بقت تراود الكثير من الرواد بله وحتى الساسة الأوروبيين، ورغم المحاولات البريطانية التي أوفدت من خلالها الكثير من المستكشفين والمغامرين إلا أنها غالبا ما كانت تؤدي بحياة هؤلاء إلى الموت، ويأتي على رأس هؤلاء الرحالة الذين ارتبطت هذه الجمعية به سائح اسمه (ليديارد ledyard) [1]، الذي قام برحلة لحسابها إلا أنها باءت بالفشل، وبنفس الطريقة انتهت محاولتان قام بهما قنصلان بريطانيان، وتوالت المحاولات من قبل الكثيرين، مثل (مونجوبارك mungopark) الاسكوتلاندي وهورنمان الألماني (f. horneman) حيث استطاع هذا الأخير أن يدخل

1 إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، (دط) الجزائر: م.و.ك.1983، ص.63،65

الكثير من المناطق الصحراوية ويتوغل داخلها، ملاحظا ومستكشفا ومدونا رحلته التي استطاع من خلالها أن يلم بالجغرافيا الإفريقية ودراسة أحوال الشعوب والمناطق[2].

ومهما يكن فإن الرحلات والبعثات قد توالت لرصد المزيد من المعلومات عن الصحراء، والاستعانة بالمحاولات السابقة. ويرجع السبق في استكشاف الصحراء في كلا الاتجاهين، شمال –جنوب وشرقي –غرب للإنجليز والألمان، الذين مهدوا الطريق لمحاولات أخرى قام بها الفرنسيون.

لقد أدرك الفرنسيون أهمية هذه الرحلات والعمليات الاستكشافية التي يقوم بها بعض المغامرين في كشف هذا العالم المجهول الذي ما فتئت البعثات والجمعيات الأوروبية تقوم بها لخدمة أغراض معينة، حينها قرروا الدخول في هذه المعركة مع الطبيعة ومنافسين لغيرهم من البريطانيين والألمان في عملية الاستكشاف.

والحقيقة أن هذا الاهتمام الذي كان سابقا للاحتلال الفرنسي للجزائر وهذا التنافس يدخل في إطار التنافس الدولي على إفريقيا في نهاية القرن الثامن عشر، وبالأخص بين فرنسا وإنجلترا اللذان دخلا في تفاوض تم بعقد اتفاقية بينهما عام 1916 خاصة حول اقتسام الكامرون، وعلى إثر الاحتلال الفرنسي للجزائر جددت اهتمامها بالصحراء الجزائرية ووجهت رحلات استكشافية عديدة .

ويمكن القول ومن خلال المصادر التاريخية أن بداية التأريخ الحقيقي والقوي للرحلات الاستكشافية الفرنسية في الجنوب الجزائري يبدأ بتأسيس لجنة الاكتشاف العلمي[1] من قبل السلطة الاستعمارية عام 1837[2]، هذه اللجنة التي عملت على إعداد تقرير شامل عن الجنوب الجزائري ودقيق يخدم المصالح الاستعمارية ويسهل من تنفيذ المخطط الاستعماري الهادف إلى إخضاع كامل البلاد.

إن ذكر الأمثلة أو نماذج عن أهم الرحلات التي قام بها الفرنسيون ليبين لنا بوضوح عزم السلطة على هذا المشروع الكبير والضخم والتي كانت مقتنعة أن بقاءها في الجزائر مرهون باحتلال الصحراء.

وعلى الرغم من ذلك، ورغم كل المحاولات التي قام بها هؤلاء الأوروبيون بمختلف جنسياتهم وعلى رأسهم الفرنسيون، فإنهم استطاعوا أن يخترقوا الحدود والحواجز الصعبة المنيعة رغم المخاطر التي واجهوها، ورغم اختلاف دوافع هذه الرحلات الاستطلاعية فإن العامل الديني يكون قويا في هذا، إذا اعتبرنا أن أغلب هؤلاء كانوا يمهدون إلى

2 – انظر تفاصيل رحلته في المرجع نفسه، ص.66، 69

1– حميدة عميراوي، "رحلات استكشافية "، دراسات أدبية وإنسانية، عدد. 1 قسنطينة، 1425هـ .2004م . 34. 35

2– حيث شكل القرار الوزاري رسميا عام 1839 هيكلة اللجنة ب: 21 عضوا اغلبهم من أكاديمية العلوم وأكاديمية الآداب والفنون والكليات العسكرية؛ أي انهم من مختلف التخصصات العلمية (آثار، جغرافيا، اثنوغرافيا، تاريخ، طب، اقتصاد..). وقد عدد أبو القاسم سعد الله مختلف التخصصات العلمية: 21 تخصصا. ينظر: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.6،ط6، دارالبصائر، الجزائر2009، ص.82.

احتلال وإخضاع الصحراء سلميا عن طريق تنصير طبقات المجتمع الصحراوي وعلى رأسهم رؤساء القبائل الذين حاولوا استمالتهم وكسب ودهم والدخول معهم في علاقات ودية حتى يؤثروا على أتباعهم .

إن هذه الحملات الأولى يمكن اعتبارها محاولة جس نبض يتم من خلالها معرفة العوامل التي تتحكم في شعوب الصحراء دينيا وسياسيا واقتصاديا وحتى ثقافيا، وهذا ما لمسناه من التقارير وتدوين الرحلات ومحاولة الاطلاع على التركيبة الإثنوغرافية الصحراوية، لهذا فإن هذه الدراسات كانت بمثابة القاعدة يبني عليها الآخرون في رحلاتهم الأخرى المتمثلة في البعثات الرسمية المنظمة.

3 – البعثات الرسمية:

يمكن القول أن الإنجليز هم السباقون في هذا المجال، حيث تذكر لنا المصادر التاريخية التي أرخت لحركة الاستكشاف والرحلات أن بريطانيا قامت بإرسال عدة بعثات رسمية تجاه الصحراء الكبراء، ومنها البعثة الرسمية الاستكشافية سنة 1812 التي وجهتها الحكومة البريطانية برئاسة " جوزيف ريتشي " الذي كان يعمل سكرتيرا للسفارة البريطانية في باريس، وقد بدأت هذه البعثة رحلتها من طرابلس، واتجهت إلى "مرزق" عاصمة "فزان"، ولكن كان مصير هذه البعثة بالفشل الذريع بسبب موت رئيسها، على أننا نجد بعثة أخرى رسمية توغلت جنوبا حتى مدينة غات، قبل أن تتجه إلى بحيرة التشاد التي مات على ضفافها رئيس البعثة الدكتور (أودني oudeny) في سنة1824 [1].

ومن خلال البعثات العديدة التي قادت مجموعة من الشخصيات نحو الجنوب بمبادرة من حكومتي بريطانيا وألمانيا، وبالنظر إلى النتائج الملموسة التي حققتها هذه البعثات في استكشاف الصحراء والمعلومات التي جمعتها عن هذا الإقليم الواسع، رغم المصاعب الكثيرة والمخاطر التي كثيرا ما أودت بحياة الكثيرين، إما موتا بسبب الأمراض وإما بسبب ما كان يلاقيه هؤلاء من بطش الأهالي وبخاصة الطوارق الذين تمكنوا من القضاء على هؤلاء الدخلاء الذين اعتبروا جواسيس في نظرهم، ولهذا نجد أن كثيرا من هؤلاء المستكشفين يلجئون إلى إخفاء جنسياتهم ودينهم النصراني خوفا من بطش الأهالي، إلا أنه رغم هذه المخاطر فإن بعض هؤلاء أبدو شجاعة فائقة وتحملوا كل الصعاب في سبيل تحقيق المشرع الاستكشافي.

أما بالنسبة للبعثات الفرنسية فإننا وجدنا عدة رجال فرنسيين قد وظفوا كأدلاء جزائريين لأجل اكتشاف الصحراء ومنها إلى أفريقيا، ومن ذلك بعثة إسماعيل بوضربة ودوفيريه، وفلاترز، وموتيلانسكي، واطانوا[1].

1 – إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص.68.

2– أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.6، مرجع سابق، ص.102.

إن هذه الشخصيات وغيرها كانت في الحقيقة متباينة من حيث الدوافع فنجد أن هناك عسكريين، ومدنيين، ورجال دين مسلحين بالعلم والمعرفة، عارفين بلغة القوم، لكن الهدف واحد؛ إنها شهوة السيطرة والاستعمار. لقد سخروا مختلف الطاقات المادية والمعنوية، واستغلوا نفوذهم السياسي وعلاقاتهم الشخصية من خلال كسب شيوخ القبائل في تحقيق أغراضهم.

ولو أردنا أن نعطي نماذج من ذلك لطال المقام، ولكن ما يمكن قوله أن بعض من هؤلاء الرجـال الفرنسيين قد اعترف بفضل رؤساء القبائل والشيوخ في مد يد العون لهؤلاء، من ذلك اعتراف دوفيريه بالفضل للشيخ محمد العيد شيخ زاوية تماسين التجانية، وكذلك للشيخ عثمان الترقي، كما اعترف (أطانوا) سنة1894 بالفضل للشيخ محمد العروسي شيخ ومقدم زاوية قمار التجانية في إنجاح مهمته بالهقار، والأمثلة كثيرة في هذا[1].

وبهذا نجد أن بعض الطرق الصوفية قد سخرت في تنفيذ المشاريع الاستعمارية بالصحراء الكبرى، ومما يدل على هذا ذلك التنافس الذي حدث بين القادرية والتجانية من أجل التقرب من فرنسا،وكسب ودها وتقديم خدمات لصالحها، ويمكن تفسير هذا الأمر وما وصلت إليه بعض الطرق الصوفية هو من أجل تحقيق مصالح شيوخها على حساب الدين والوطن،حيث صاروا أداة طيعة في خدمة الاستعمار.

ورغم الخدمات الجليلة التي كانت تقدمها هذه البعثات العلمية والدراسات التي أجرتها على الطرق الصوفية والقبائل والآبار واللهجات والعادات والتقاليد، فإنه يمكن تفسير ذلك بأن هذه الدراسات لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما هي إحدى الوسائل المستخدمة نحو التقدم نحو إفريقيا والسيطرة على الصحراء.

وبالرجوع إلى أدبيات الحملة الفرنسية نلاحظ بوضوح السلوك الديني لدى معظم القادة العسكريين الفرنسيين هو الظاهر، رغم ما نجد من ترويج في بعض الكتب التاريخية الفرنسية لبعض النظريات والأطروحات في تفسير دوافع الغزو والجهة المسؤولة عنه وأغراض الغزاة ومحاولة التلبيس وطمس الحقائق التاريخية الواضحة[2]، وما يؤيد قولنا هذا من اعتبار الجانب الديني ودوره في الاحتلال، ما ساد في فرنسا عشية الاحتلال، فيُذكر أنه منذ سنة 1814؛ أي منذ عودة أسرة البوربون إلى الحكم، شهدت مجهودات كبيرة لأجل إعادة الاعتبار للمسيحية، بل إنه من الأسباب التي دعت فرنسا لغزو الجزائر ادعاؤها انقاد المسيحية والمسيحيين من أيدي القراصنة الجزائريين، لأن فرنسا كانت تعتبر

1 – أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص-.ص.102- 104.

2 – عن هذه النظريات والأطروحات يراجع ما كتبه سعد الله في هذا الشأن في تاريخ الجزائر الثقافي وبخاصة في الجزء السادس.

نفسها آندك حامية الكنيسة الكاثوليكية باعتبارها إحدى أقوى الإمبراطوريات في ذلك الوقت[1]، وأيضا مكانتها الدولية وهيبتها العالمية بين الدول.

ومهما يكن فإن البعثات العلمية والاستكشافات والرحلات، ما هي في الحقيقة إلا غطاء للتوغل نحو الجنوب وإفريقيا والسودان بالتعاون مع الطرق الصوفية، ولهذا نجد أن ما كتب حول الكاردينال لافيجري ومشروعه التنصيري من أنه كان يؤمن بفتح الصحراء في وجه فرنسا، إلا أن العائق الذي كان يواجه فرنسا حسبه هو الدين الإسلامي، ولذلك كما يقول سعد الله: " ألف الإرساليات التنصيرية التي كان هدفها نشر المسيحية وتسهيل مهمة فرنسا في الاستيلاء على المناطق الصحراوية الشاسعة وهنا تظهر له فكرة إنشاء "جمعية الآباء البيض" للصحراء....."[2]، وهو ما صرح به أحد الشخصيات الفرنسية وهو الأب " شاليً عام 1930 [3].

لقد نجحت هذه الاستكشافات إلى حد كبير في تعبيد الطريق نحو تنفيذ المشروع الاستعماري الكبير، ودراسة المجتمع الصحراوي من كل الجوانب، وكان دور رجال الدين في هذا قويا، من خلال الأساليب التي وظفها هؤلاء في كسب ولاء بعض زعماء القبائل ورجال الطرق الصوفية، تجلى ذلك في الحماية التي وجدها هؤلاء، والمعلومات التي قدمت لهم عن أهالي الصحراء. حقيقة أن نتائج دراساتهم أفادت كثيرا في المضي قدما والتوغل نحو الجنوب إلا أن عائق الدين الإسلامي كان دائما يقف في طريقهم، باعتبار ما عرف به أهالي الصحراء من قوة التمسك بالدين والدفاع عن عقيدته من الأفكار والعقائد الدينية الدخيلة، وبخاصة السكان الذين كانوا يقطنون الأطراف الشمالية الذين عرفوا بشدة تمسكهم بالدين، ولهذا نجد أن قادة الكنيسة وزعمائها عملوا كل ما في وسعهم من أجل تحطيم هذا الحصن المنيع لإنفاذ المشروع الاستعماري والتمكين للدين النصراني في هذه البلاد.

لاستعماري كان يتطلب جهودا جبارة وتضحيات كبيرة ووضع استراتيجية دقيقة في هذا المسعى، وتوظيف رجال قادرين على تحمل مصاعب ومخاطر هذا المشروع. وبالفعل فقد تم إعداد دراسات وتقارير عن بداية العمل الجاد يهدف إلى التوغل نحو الجنوب واختيار شخصيات دينية معروفة في الوسط الديني والكنسي، تحمل مسؤولية نشر النصرانية في الصحراء الجزائرية وغرب إفريقيا وحتى السودان، وقد باركت الكنيسة الكاثوليكية هذا العمل وقامت بمساعي حقيقية من أجل تحقيق هذا المشروع بالاستعانة بالقادة العسكريين المتحمسين للاستعمار الديني.

1 – الطاهر عمري، **دور بنى المجتمع الجزائري في مقاومة الاستعمار (1830– 1900)**، ماجستير، قسنطينة، 1999، ص.90.

2 – سعد الله، ج.6 ، المرجع السابق، ص.130.

3 - mohamed korso , politique et religion; l islah, ses structures , ses hommes. Tome 1, these d histoire, paris, 1989, p.38.

لقد تبوأ لهذا العمل شخصيات عرفت بالتعصب الديني النصراني والكراهية الشديدة للإسلام والمسلمين، وصاروا هم رواد التبشير في الجزائر وقد حاولوا نشر النصرانية بالجنوب الكبير، إلا أنهم منوا بالفشل الذريع. وهذا ما سنقف عليه في العنصر اللاحق في حديثينا عن أهم رواد التبشير الذين توغلوا نحو الجنوب مخترقين الكثير من الحواجز مغامرين ومخاطرين في بعض الأحيان. فماذا عن أعمال هؤلاء؟ وما هي الطرق التي وظفوها والمناهج التي استخدموها والأدوار التي لعبوها في هذا الميدان؟

1- رواد التبشير:

لقد اختلفت أغراض المستكشفين والرحالة الذين خاضوا غمار البحث والتوغل داخل الصحراء، منهم من اندفع وراء المغامرة بحثا عن المجهول، ومنهم من كانت أغراضه علمية بحتة لدراسة طبيعة الصحراء ومعرفة أساسيات المنظومة المعرفية للثقافة الإنسانية من زمن لآخر أو بين مختلف المجتمعات البشرية، وطائفة أخرى سخرت نفسها لحساب الحكومات الأوروبية بحثا عن الطرق التجارية وأسواق جديدة ومناطق نفوذ تمهيدا للسيطرة الاستعمارية، لكن طائفة أخرى كانت تهتم – حسب زعمهم –: "...بإنقاذ الصحراويين من الوبال والعذاب في الآخرة، بإدخالهم إلى حظيرة الدين المسيحي الذي هو الدين الوحيد في رأيهم.." [1]

إن تصميم السلطة الدينية على تنفيذ مشروعها التنصيري لم يكن لينطلق لولا عزم السلطة الزمنية على التوغل داخل الصحراء، لهذا بدأت حركة التبشير بصفة رسمية تزامنا مع التوسع الاستعماري نحو الجنوب، ورغم العائق الكبير الذي وقف في طريق هؤلاء الذي هو الإسلام، الذي من الصعب مقاومته، إلا أنهم قرروا المضي في سبيل هدفهم المنشود "...إن المتتبع لأعمال هؤلاء المبشرين في مؤتمراتهم وما تنشره صحفهم ومجلاتهم يبين أن القوم لا يزالون جادين في غرس ذلك الحقد وتنميته في الصدور..."[2]

لقد انطلقت حركة التبشير منذ وقت مبكر بعد دخول سلطة الاحتلال أراضي الجزائر، وبدأت في مشروعها التنصيري المبرمج في بلاد القبائل أولا، وخاصة بعد أن أنشأ الكاردينال لافيجري نظام الآباء البيض، تكن نظرهم كان بعيدا، انهم يريدون دلك العالم المجهول الذي يعيش فيه مليونان من النفوس أو يزيدون، وهذا هدف استراتيجي يخدم مصالح كثيرة مشتركة تعاونت الكنيسة أو السلطة الاستعمارية لتحقيقه و إخضاعه.

إن الكلام عن أهم الرواد الأوائل الذين تسللوا إلى الجنوب الجزائري يبدأ من سنة 1876 حينما تحدت الكنيسة الكاثوليكية جميع العراقيل، تما ارسلت ثلاثة مبشرين و هم الآباء: (يوليي، موريه وبوشاند) عبر الصحراء، هذا الحدث

1 – إسماعيل العربي، مرجع سابق،ص109.

2– مجهول، "مؤتمر التبشير في القدس"، الشهاب، العدد144، السنة3، قسنطينة، 1345-1346هـ /1927-1928، ص.874.

التاريخي الذي أعلنه لافيجري في بيان رنان لا تنقصه العجرفة وروح التحدي جاء فيه: " في هذه الساعة يوجد ثلاثة من المبشرين من رجالنا في بلاد الطوارق، و عما قريب سوف يدخلون إلى تمبكتو في عزم وتصميم ليستقروا في عاصمة السودان أو يلقوا فيها حتفهم حبا في الحقيقة ".[1]

إنه تصميم وعزم على اختراق المجهول، رغم المخاطر والصعاب، لقد شاءت العناية الإلهية أن يكون مصير هؤلاء القتل قبل الوصول إلى داخل الصحراء على أيدي الطوارق الذين كلفهم الكاردينال بمرافقتهم، ورغم ذلك فإنه لم يتراجع عن إرسال البعثات نحو الصحراء للتمركز هناك.

وما يهمنا في هذا المبحث هو الكلام عن أهم الرواد الكبار الذين أفاضت المصادر التاريخية في ذكر أعمالهم التبشيرية ومناهجهم و نتائجها [2]، ويأتي على رأس هؤلاء شارل دوفوكو (charles de foucould)، الذي يعتبر أكبر مستكشف ديني نصراني للصحراء ومن أخطر المبشرين، وذلك من خلال الأعمال التي قدمها للكنيسة وتعبيده الطريق لتمكين الاستعمار من البلاد، وفي سياقنا هذا سنتطرق لأهم الشخصيات الأخرى قادة الحركة التنصيرية وعلاقتها بدوفوكو.

***– نشاط دوفوكو (1858– 1916) :**

يعتبر دوفوكو رائد الاستكشاف في الصحراء الجزائرية وأخطر المبشرين قاطبة، وخطورته كما قال إسماعيل العربي: " انه عقلية علمية من الدرجة الأولى وهو خريج (مدرسة سانسير) وأنه يحمل في نفسه شعلة متقدة من الإيمان و يجد لذة في المتاعب و في التضحية بالراحة و متع الحياة" [3]

لقد تخرج دوفوكو من مدرسة لافيجري ويعد من أنجب تلاميذه، حمل عبء استكمال المشروع الديني النصراني بكل أمانة وصدق، لقد كانت حياة دوفوكو في البداية حياة ماجنة يمكن أن نقول عنه انه لا تربطه أية علاقة بالكنيسة ورجالها، والمصادر التاريخية تحكي أنه اهتدى إلى حياة التدين لأسباب قد نجهلها. لقد وهب نفسه في خدمة النصرانية وبدأ حياته الاستكشافية بأول رحلة إلى المغرب الأقصى سنة1883، متنكرا في هيئة حاخام شرقي برفقة الدليل والمرشد اليهودي (ماردوش)، واستمر في رحلته الاستكشافية حتى الأطلس الأعلى، وذلك بعد أن التقى بالأب (هوفلي)، ليقرر في كنيسة القديس أوغسطين بداية مهام التبشير في الصحراء الجزائرية ومنها إلى إفريقيا

1 – إسماعيل العربي، المرجع السابق ص.110

1 - Henri masse,les etudes arabes en algerie (1830-1930) societe historique .

3– إسماعيل العربي، مرجع سابق، ص112.

الغربية، قد جمع في رحلته معلومات دقيقة من خلال مشاهداته وعلاقاته في هذه البلاد لتكون بذاك المنطلق الأول في عملية استكمال هذه الرحلات، وبعد عودته إلى فرنسا وتدوين مذكراته، أعاد الكرة في رحلة أخرى نحو الصحراء الجزائرية ونفسه تدفعه إلى مزيد من الاستكشاف والبحث عن المجهول، وفي هذه الرحلة حاول أن يجد لنفسه مستقرا يأوي إليه ويتخذه مركزا لاستئناف نشاطه، حيث استقر بواحة بني عباس في مرتفع صخري وكان يفد إليه مالا يقل عن مائة زائر من البؤساء والفقراء وذوي الحاجة، والحقيقة أنها فرصته المواتية لبث دينه في قلوب هؤلاء المساكين مستغلا ضعفهم وحاجاتهم.

الحقيقة أن دوفوكو لم يقنع بإقامته في بني عباس بل وصل سيره قاطعا خمسة آلاف كلم في الصحراء ليصل إلى الهقار بعد عشرة أيام، ويأخذ في تعلم اللغة الترقية وهذا بعد أن أخذ الإذن من (آغا آمستان) رئيس الطوارق، والإقامة بينهم[1]

يمكننا القول أن دوفوكو شخصية متميزة استطاع بذكائه وقوته العلمية و دهائه السياسي من أن يجمع معلومات هامة عن أهالي الصحراء، و يمكن تصنيفه ضمن علماء الاثنوغرافيا[2] و الاثنوتوجيا[3]، من خلال المعلومات الدقيقة التي جمعها وقام بتحليلها ليوظف نتائجها في مشروعه التنصيري.

إن المتفحص لسيرة دوفوكو وأعماله التي قام بها خلال إقامته بصحراء الجزائر قبل أن يلقى حتفه على أيدي التوارق، يمكن أن نقف على الأدوار التي لعبها و نقسمها إلى ثلاث:

أ- الاشتغال بالجوسسة والاستكشاف للتمكين للاستعمار:

ويتجلى ذلك من خلال الرحلات التي قام بها حيث ساهم في تدعيم النشاط الاستعماري، الذي بلغ أوجه في القرن التاسع عشر.

لقد اتخذ دوفوكو في رحلاته منهجا دقيقا يتسم بالغموض والتمويه والتقمص لشخصيات عدة من أجل أن يوهم الناس ويصرفهم عن معرفة شخصيته الحقيقية، التي قد تؤدي إذ اكتشفت إلى القتل أو غيره، كما حدث لزملائه

1- سعيد عليوان، سعيد عليوان، **التنصير وموقفه من النهضة الحضارية في الجزائر**، دكتوراه، ج2، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2001/2000، ص.652.

2 – مصطلح الاثنوغرافيا : كلمة معربة تعني بالدراسة الوصفية لأسلوب الحياة و مجموعة التقاليد و العادات والقيم والآداب والفنون، والمؤثرات الشعبية لدى جماعة او مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة

3 – مصطلح الاثنولوجيا : يهتم بالدراسة التحليلية و المقارنة للمادة الاثنوغرافية بهدف الوصول إلى تصورات نظرية أو تعميمات تحدد مختلف النظم الاجتماعية من حيث أصولها وتنوعها.ينظر حسين محمد فهيم، **أدب الرحلات**، (دط) الكويت:مؤسس1ة الرسالة، 1989.ص.50،49.

الأوائل، وكدا بعض البعثات الرسمية التي قتل أصحابها على أيدي الطوارق، وعلى هذا عمل دوفوكو على الاستفادة من تجربة سابقيه والحذر من الوقوع في شراك هؤلاء.

ويتلخص منهجه الذي ندب نفسه من أجل بلوغ وتحقيق مشروعه الاستكشافي للجوسسة ومن ثم فتح الطريق أمام الزحف الاستعماري فيما يلي:

- الاهتمام بالمناطق المجهولة التي لم يدخلها أسلافه، وهو ما يبين التكامل بين رواد الاستكشاف الأوائل.
- التنكر استجابة لتجارب السابقين، وذلك أن أغلب من اكتشف أمرهم قتلوا من قبل السكان بسبب اطلاعهم على نواياهم الاستعمارية.
- التهود والظهور بالشيخوخة إلى حد تقمص شخصية اليهودي المتسول لاعتبار الناس بذلك، وأيضا للحماية الاجتماعية التي كانت تكتنف اليهود في ظل أحكام الإسلام المتعلقة بمعاملة أهل الذمة.
- ملازمة العزلة وعدم الاختلاط كثيرا بالناس.

وفي سياق تحديد المنهج الذي رسمه دوفوكو لنفسه يقول كاشفا عن نواياه في أحد مؤلفاته ".. المسافر الأوروبي لا يمكن أن يكون إلا عينا ليتعرف على بلادهم وبدراسة المحيط يهيئ له الغزو، فهو جاسوس، وخشية الغازي أشد من كراهية المسيحي..."[1]

الحقيقة أنه لا يمكن تفسير هذا السلوك إلا من شخصية جمعت بين الدهاء السياسي والنفاق الديني، إضافة إلى الحيل الشيطانية للوصول إلى تحقيق الهدف، ثم إن رحلاته بين مختلف مناطق العالم الإسلامي التي قادته من المغرب إلى المشرق، متجولا بين الدول حتى قيل عنه أنه دخل بيت الله الحرام متنكرا في زي الحجاج، من أجل دراسة الإسلام وأهله ليتمكن من وضع السلاح المناسب لهدمه وتحريفه.

لقد تعرف من خلال رحلاته على معظم المناطق، وعرف الإسلام، ورغم أن بعض ممن كتبوا على دوفوكو قيل فيه أنه أوشك على اعتناق الإسلام بسبب تأثره به، على أن القول الذي نطمئن إليه أن هذا القس قد تأصلت فيه الديانة النصرانية التي وهب نفسه لنشرها بكل الطرق، وأنه كان يعمل جاسوسا وخادما وفيا للاستعمار.

ب – دوره العسكري:

إن أهم ما كان يسعى إليه دوفوكو، ويقوم به من خلال المجهودات التي يقدمها هو إكمال السيطرة الاستعمارية الفرنسية على الجزائر، لكن منهجه – كما بينا سابقا– كان يختلف في صورته عن الأسلوب العسكري من القمع

1 – سعيد عليوان، مرجع سابق، ص.661.

والاضطهاد، حيث رأى أن تكون في صورة التحبب للناس وإظهار النصرانية بمظهر التسامح والعدل والمواساة والأخوة...الأمر الذي يؤدي –حسبه– إلى فائدة مزدوجة: تقبل الأهالي للاستعمار طواعية، وثانيها ترسيخ النصرانية

ج– دوره التنصيري:

لا شك أن من أهداف التنصير الكبرى التي سطرها منظرو المشروع التنصيري هو :

- تقسيم المجتمع إلى قوميات
- إحياء النعرات القومية
- نشر الحقد والكراهية بين أفراد المجتمع الواحد
- تمكين النصرانية في المجتمعات الإسلامية.

كان دوفوكو يرى أن التنصير هو الوسيلة الوحيدة لتثبيت الاستعمار، هذه هي قناعة دوفوكو، ولكي يتحقق ذلك عمد إلى:

- تحطيم البنية الثقافية والاجتماعية والنفاد منها: وذلك عن طريق التودد وإظهار المحبة، والتقوى وتقديم الخدمات الإنسانية ومنها التطبيب والتعليم[1]، وفي المقابل يسعى إلى زعزعة قلوبهم بالتخلص من معتقداتهم جزئيا أو كليا، وكدا الرغبة الأكيدة في العمل على زرع الاضطرابات في الأذهان، بالإضافة إلى إتباع سياسة فرق تسد.
- استخدام الأطفال للوصول إلى أوليائهم[2].

وهذا التنوع في المنهج في اعتقادنا جاء من خلال الدراسات العميقة التي وصل إليها دوفوكو من خلال الكم المعلوماتي الهائل الذي حصل عليه والتحليلات التي قام بها لأساليب الحياة في الصحراء ومجموع العادات والتقاليد والقيم التي تحكم المجتمع الصحراوي، وكدا المؤثرات التي يخضع لها المجتمع، ومن خلالها قام بصياغة تصورات نظرية لتحديد تلك النظم الاجتماعية والثقافية وأنماط التفكير.

وكما أشرنا في السابق فإن هناك رجال آخرين كان لهم الدور في التبشير بالصحراء الكبرى، وبعضهم كان على علاقة دائمة مع دوفوكو، وهذا يدل على ذلك التكامل والتوافق والتعاون الجاد في العمل التنصيري الذي يمكن أن نسميه بالعمل الجماعي، وهؤلاء وإن كان لهم السبق في العمل التنصيري على دوفوكو، فإن شخصية هذا الأخير طغت على أعمال هؤلاء وأضحت المؤلفات والدوريات تشيد بأعمال دوفوكو، وتقيم له المناسبات وغيرها، غير أن تأثر دوفوكو بهؤلاء الرواد أمر لا يخفى ويأتي على رأسهم:

1 - Yovone turin, Affrontement culturel dans l'Algérie colonel, Francois masperon, Paris 1971.p-p.93.98.

2 – عليوان، المرجع السابق، ص–ص.667–677.

-أرنست رينان (1823- 1892): وهو من أشهر رجال الدين الذين برزت ألمعيتهم في هده الفترة إضافة إلى أنه عالما باللغات السامية ومؤرخ أديان، وله مناظرة شهيرة بينه وبين الأفغاني. لقد كان لهذا المنصر تصور سلبي عن الإسلام، وحقد شديد ظاهر، وكان يعتقد أن سبب تخلف المسلمين وانحطاطهم ورجوعهم القهقرة سببه الإسلام، كما كان له تأثير واضح على الكتاب والمشاهير، ورجال السياسة والدين والأدب، وكانت أفكاره منتشرة وإقبال الناس عليه كثير.

- هنري دوفيري (H. duveryrier). 1840: الذي قام برحلة إلى الجزائر وتنقل في بعض المناطق الجزائرية مستكشفا لأحوالها، حيث وصل إلى الأغواط والهضاب العليا والأوراس وبلاد الطوارق، حيث احتك بأهل الطوارق وزعمائها واستطاع أن يتعلم اللغة الترقية ويبدأ في دراسات إثنوغرافية على السكان من أجل معرفة أكثر أدق.

وتفيد المصادر أن كلا من دوفوكو وهنري قد التقيا واجتمعا وكان حديثهما على الطوارق وما يتعلق بالصحراء من حيث الاستكشافات التي سيقومون بها عبر مناطق الصحراء الكبرى وحتى افريقيا[1]

ويمكن القول أن دفيري كان مرشدا لدوفوكو الذي اهتدى بمعالم الاستكشافات التي وضعها له، لأنه كان على علاقة حميمة مع اليهود المحليين، وهم الذين سهلوا عائق الاتصال بينه بين السكان بسبب الاختلاف اللغوي، والمستكشفون السابقون ومنهم الألماني (بارث)، والقساوسة ومنهم لافيجري، وكدا المستشرقون ومن أهمهم (رينان).

حقيقة إنه أخطبوط كبير كان يدور بالجزائر، جهود منظمة يحكمها التكامل في العمل والتعاون المنظم، وكله من أجل إنجاح المشروع الصليبي النصراني وتمزيق الجزائر وإخضاعها بل وسلخها من كل مقوماتها الوطنية والثقافية، وهذه الضربات المتوالية ذات الطابع الاستمراري يمكن تفسيرها بتصميم الكنيسة على ترسيخ النصرانية والتمكين للاستعمار، ومن ثم الوصول إلى الحلم الذي طالما راود البابوية من تعميم النصرانية في ربوع العالم.

5 – الاستعمار والتنصير بالصحراء :

لا يمكن الحديث عن التنصير دون ربطه بالدوافع الاستعمارية، وهذا مانلمسه من خلال تصريحات السلطة الزمنية الممثلة في الحكومة الفرنسية، أو السلطة الدينية الممثلة في البابوية، والكل كان يعمل في اتجاه واحد؛ إذ هما وجهين لعملة واحدة، والكلام على بعض الأنشطة التي تحدد العلاقة القائمة بين الكنيسة والإدارة الاستعمارية، وكذلك على بعض أدوار بعض رجال الدين – وقد ذكرنا منهم ثلة – الذين تولوا أمر الكنيسة وكانت لهم مخططات خاصة ، ولكن يمكن الوقوف على بعض المعالم الأساسية من خلال الشواهد والتصريحات لعلاقة المبشر بالمستعمر.

1- أنظر: إسماعيل العربي، مرجع سابق.ص- ص. 82- 89.

إنها حقيقة لطالما أرجعها بعضهم إلى إشكالية في فهم الأدوار التي قام بها كل طرف، بل إلى نظريات وأطروحات تقوم على أن هناك خلافا بين نوايا وأهداف رجال الدين ورجال الدنيا من الفرنسيين، ومهما حاولت هذه الأطروحات أن تجد تفسيرا لدوافع الغزو ودور كلا منهما والفصل بينهما، فإن الشواهد التاريخية، بل والواقع التاريخي يؤكد أن المنصرين قدموا خدمات جليلة للتمكين للاستعمار، بل وفي تعبد الطريق نحو التوغل داخل الصحراء. إن الأمثلة على ذلك كثيرة، ولكن يكفي تلك التصريحات لنوايا رجال الدين، لقد عبر عن هذه الحقيقة البابا بيويس التاسع (pielx) في رسالته إلى الكردينال لافيجري بشأن أولئك الأطفال الذين جلبهم إلى ملاجئه فأيد وبارك هذا، وبين أن هذا من صميم الرسالة النصرانية، كما بين أهميته في التمكين للاستعمار وأن التبشير والاستعمار وجهان لعملة واحدة.[1]

ولم يكن دعاة التنصير وحدهم يعملون على تنصير الجزائريين وردهم عن دينهم وإنما مؤيدين من طرف الاستعمار ماديا ومعنويا يقول الزاهري: ".. والأمر الثالث الذي لاريب فيه أيضا أن الاستعمار يعين الملحدين على نشر الإلحاد بين المسلمين، ويحمي أيضا جماعة المبشرين ويعاونها بالمال، وربما أمدها بإعانات مالية من أوقاف المسلمين"[2]

وبالرجوع إلى مسيرة الاحتلال مذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر، نجد أن السلطة الزمنية والدينية الروحية غير محددة لدى الحكام الفرنسيين في الجزائر ولدى رجال الدين في فرنسا الذين لهم علاقة بالشؤون الخارجية، يقول سعد الله: " فمنذ تقرير العقيد(كلير مون تونير) الذي قدمه إلى شارل العاشر لإقناعه بالموافقة على الحملة ضد الجزائر فقد كان الدافع الديني قويا في أذهان الفرنسيين، ووعده بأن الحملة ستحقق انتصار الكنيسة الكاثوليكية على الإسلام واستعادة المسيحية إلى إفريقيا كما كانت قبل الإسلام "[3]

وهذا الأمر هو ما نلمسه في سلوكيات القادة العسكريين الذين كانوا متحمسين للنصرانية ومن خلال مواقفهم من الإسلام ومساجد المسلمين والأوقاف....لقد أعطى الجنرالات والحكام والعاملين أولوية خاصة إلى رجال الدين، الذين كانوا أيضا أوفياء في خدمة الاحتلال. وإلا فما تفسير تلك الحملات الاستكشافية والبحوث العلمية التي أجريت من قبل المبشرين أنفسهم؟ ألا يعني ذلك توظيف رجال الدين ونتائج دراساتهم من أجل تعبيد الطريق أمام الاستعمار؟

1 – عليوان، مرجع سابق، ص.606.

2 – الزاهري، مصدر سابق، ص.113.

3 – سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي** .ج.6 ص.106. وكذلك: **الحركة الوطنية**، ج.1، ط6، دار البصائر، الجزائر، 2009 ص.79، 80.

والتنصير كشعار قام على الدعوة لنشر المسيحية بينما كممارسة كان يهدف إلى التوسع الاستيطاني الأوروبي، و لذا نرى الكثير من المبشرين وعلى رأسهم دوفوكو كانت له علاقة واسعة مع المسؤولين العسكريين، والذي كان له الدور في احتلال مناطق واسعة بين شمال إفريقيا و المناطق المتاخمة للصحراء، حيث تذكر المصادر أن السلطة الفرنسية لما قررت التوسع في الجنوب الجزائري أكثر صاحبت معها دوفوكو الذي كان له علاقة مع بعض أعيان التوارق من الوصول إلى تمنراست و جانت عام 1909، ونظرا للمكانة التي كان يحظى بها دوفوكو بين السكان من خلال سيرته فيهم، والمنهج الذي تعامل به معهم، ويفهم من خلال المذكرات التي كتبها بنفسه أو من خلال المراسلات التي تبادلها مع الشخصيات الفاعلة بالمنطقة وكذا من شهادة الكثيرين لتلك الآثار التي تركها سواء بالتعليم أم في الحياة الاجتماعية أم في ذهنية السكان من مدنية وحتى في الحرف اليومية للسكان إذ كان الصليب ينقش و ينسج ويرسم[1].

ويمكن القول في علاقة المبشرين بالاستعمار أنها كانت علاقة تكامل، ففكرة نشر التعاليم المسيحية ما هي إلا غطاء لدور خطير تحققه نوايا مشتركة تتفق في الهدف والتخطيط، فكان دور التنصير في الجزائر هو تدعيم أسس النظام الاستعماري وذلك من خلال :

- تبرير احتلال الجزائر وإضفاء الشرعية على هذا الاحتلال .
- أن الكنيسة تلتقي مع الاستعمار في إثبات حق وجودهما بالجزائر انطلاقا من فكرة بعث المجد الضائع (حلم إفريقيا المسيحية).
- أن الكنيسة تلتقي مع الاستعمار في محاولة طمس معالم الثقافة الإسلامية قصد تفكيك وحدة الأمة الجزائرية.
- نشر الحضارة والفكر الأوروبي الحديث كأداة استعمار.
- محاولة توسيع النفوذ الأوروبي و توسيع النشاط الاستعماري والكنسي[2]

وبالرغم من هذا التعاون بين رجال الدين والسياسة في محاولة إخضاع واحتلال الصحراء ورغم تحالف بعض رؤساء القبائل مع السلطة والمبشرين، إلا أن كل هذه الجهود باءت بالفشل ؛ إذ لم تتمكن السلطة العسكرية من احتلال الصحراء كلها إلا بعد مضي قرن من الزمن أين تم إخضاع آخر منطقة سنة 1934، وهي تندوف، كما أن الكنيسة باءت بالفشل والخيبة، من خلال نتائج أعمالها.

1 - حميدة عميراوي، **من الملتقيات التاريخية الجزائرية**،(دط)، قسنطينة، دارالبعث، 2000 ص161، 172

2 - مصطفى هادف، المشروع العلماني الفرنسي وموقف جمعية العلماء منه، ماجستير، قسنطينة، 2001، ص-ص.16، 19. وكذلك: ميلاد المقرحي، **تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر**، ط.1، منشورات الجامعة المنشورة، بنغازي، 1991، ص-ص.167- 177.

قد يتساءل المرء عن سر ذلك أو بالأحرى هل كان هناك رد فعل من قبل أهالي الصحراء؟ وما هي طبيعة هذا الرد وما هو موقفهم من الهجمات الشرسة على قيمهم ودينهم وعاداتهم وأرضهم؟ ألا يمكن طرح أكثر من تساءل؟

الخاتمـــة :

من خلال ما سبق يمكننا إبراز النتائج الآتية:

– أن سلطة الاحتلال عمدت منذ البداية إلى استخدام كافة الوسائل الممكنة لاحتواء وإخضاع كل المناطق بما في ذلك الصحراء التي كانت تعتبرها بوابة إفريقيا السوداء .

– أن الاحتلال الفرنسي استغل الوضع العام بالصحراء لتحقيق مشاريعه التوسعية ومنها الاقتصادية والدينية.

– أن توظيف رجال الدين وحمل الصليب كانت له أبعاد إستراتيجية وذلك عن طريق الحملات التبشيرية التي قام بها بعض أتباع الكنيسة بدعم من البابوية.

أن الكنيسة تلتقي مع الاستعمار في إثبات حق وجودها بالجزائر انطلاقا من فكرة بعث المجد الضائع (حلم إفريقيا المسيحية).

– أن الكنيسة تلتقي مع الاستعمار في محاولة طمس معالم الثقافة الإسلامية قصد تفكيك وحدة الأمة الجزائرية.

– نشر الحضارة والفكر الأوروبي الحديث كأداة استعمار.

– أن السياسة التنصيرية باءت بالفشل الذريع رغم الترسانة البشرية والوسائل المادية التي سخرت لإنجاح المشروع الصليبي في الصحراء بفضل المقاومة الشرسة التي قام بها أبناء المناطق الصحراوية، رغم عملية الإخضاع العسكري التي نجحت فيها سلطات الاحتلال إلا أن المشروع الثقافي الذي سطرته الكنيسة فشل فشلا ذريعا.